حسن التصرف هبة !

يذكرون عن محمد على باشا الكبير أنه أراد أن يختبر أولاده وخاصة حاشيته فى يوم من الأيام ، فأمر بإحضار بساط عريض ، وبسطوه أمامه ، ثم أمر بتفاحة فأحضرت له ، فوضعها فى وسط البساط ، ثم تحدى الحاضرين أن يلتقطوا التفاحة من فوق البساط بأيديهم ، دون أن يمشوا على البساط خطوة واحدة بأرجلهم ؛ فتسارع الرجال إلى السباق ومحاولة التقاط التفاحة ، وكان أسرعهم إلى المحاولة الطوال الفارعين منهم ، فهذا يحنى قامته ويمد يده بأقصى مايستطيع فلا يصل ، وهذا يرمى بجسمه ويمده فوق البساط ثم ينشر يده نحو التفاحة فلا يستطيع الوصول إليها أيضاً ، وتتابع القوم على المحاولة واحدا بعد واحد ، فلم ينجح منهم فى ذلك أحد ، وكان إبراهيم باشا نجل محمد على باشا موجوداً بين الجمع ، وكان قصير القامة قصير الساقين ، حتى إنه كان يتندر بذلك ويمازح عليه خاصته ، فلما عجز الجميع عن التقاط التفاحة ولم يبق سوى إبراهيم ، تطلعت إليه العيون وهو يسعى نحو البساط ، ومافيهم من أحد إلا وهو يغالب ضحكه وسخريته من هذا القصير الذى يريد أن يأتى مالم يقدر عليه الطوال الأشداء ... ولكن إبراهيم السريع البديهة الحاضر الذهن الحسن التصرف ، أقبل نحو البساط فلما حاذاه تناول حاشيته وطواها حتى بلغ التفاحة . فالتقطها بسهولة ، وسلمها لوالده الذى أعجب بذلك التصرف ، بين نظرات الدهشة والاستغراب التى انطلقت من عيون القوم وهم سكوت لما فاجأهم به إبراهيم من تصرف حميد !

هكذا يجب أن يكون الشاب فى الحياة ، فستصادفه أزمات ومشكلات ، يخيل اليه فى بادىء الأمر أنها ألغاز لا تحل ، وجبال لا تنقل ، وشواهق لا تتحلحل ، ولكنه لو أعمل فكره قليلا لوجد العسير يسيراً ، والصعب سهلا ، والبعيد قريباً . . . وكم من فرد حاول البلوغ إلى هدف من الأهداف ، فسار على الطريق الطويلة الممتدة التى لا تنتهى ، وكلما قطع شوطاً ، وحسب أنه بلغ ووصل ، تطلع فوجد الطريق خالية ، والغاية نائية ، والنهاية بعيدة ، فيواصل المسير من جديد ، بينما يكون هدفه على جانب طريقه ، يلوح له مرة عن يمين ومرة عن شمال ، ولو لفت بصره إلى جانبه لرآه ، ولو خطا خطوات معدودات إلى شماله أو إلى يمينه لوصل إلى ما يريد ، ولكنه ربط بصره بما أمامه فلم يحسن التصرف ، ولم يحكم التبصر فى الأمور !

وكم من أناس يرومون فى الحياة مجداً ، أو يطمحون إلى تحقيق أمل من الآمال ، ويجهدون أنفسهم فى سبيل ذلك إجهاداً عنيفاً ، ثم يحرمون مما يطمحون إليه ، فيخيل لهم أن الطبيعة قد حرمتهم ، أو أن الأقدار قد قست عليهم ، بينما تكون الأقدار فى الواقع وحقيقة الأمر قد أرادت ابتلاءهم واختبارهم فوضعت لهم مجدهم وآمالهم بين أيديهم ، على مرأى ومسمع منهم ، ولكنها سترتها بستار رقيق شفيف ، لا يحتاج نزعه إلى كبير مجهود ، وكان الأجدر بهؤلاء أن يحركوا عقولهم ويحسنوا التصرف فيكشفوا بأيديهم ذلك الستار الخفيف لمسكوا عصفورهم الذى يطاردونه ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، بل انطلقوا على وجوههم ، كالدواب المسيرة المجبرة ، أو كالآلة الصماء التى يحركها سواها ، فطالت عليهم الشقة ، وامتد أمامهم الأمد ، ولم يبلغوا ما يريدون ، فغضبوا وثاروا ، ولو أنصفوا لبكوا على أنفسهم التى لم ترزق النور !

نريد صنفاً من الناس يعملون بعقولهم وأيديهم معاً ، فإذا كانت لهم خطط أخلصوا لها ، ولكنهم لايذلون أمامها فى كل وقت ، بل يتصرفون فى الأمور ، ويتدبرون فى الشؤون حسبما تقتضيه ظروف الزمان والمكان ، وبذلك التصرف الحميد ينجون من مخاطر ، ويبعدون عن مهالك ، ويصلون إلى غايات وأهداف !

أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف

- احثوا فى وجوه المداحين التراب .
- من لم يقم بأمر معيشته لم يقم بأمر دينه .
- الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب
- التائب من الذنب كمن لاذنب له .

« من الأحاديث الشريفة »